

خليل مطران

١٩٤٩ - ١٨٦٨

حمل خليل مطران، منذ وقت مبكر، لقب شاعر القطرين. ثم صار يلقب، إلى جانب لقبه هذا، بشاعر الأقطار العربية. لكنه لم يرتق إلى موقع الإمارة في الشعر، لأن تلك الإمارة كانت قد أعطيت لأحمد شوقي. ولم تأت تلك الإمارة إلى شوقي، تقديراً للقيمة الكبيرة لشعره، وحسب. بل هي أعطيت له لأسباب أخرى، سياسية وغير سياسية. غير أن إمارة شوقي للشعر، وراثته لجمعية "أبولو" الشعرية، لم تسدا على الكبار من شعراء ذلك العصر الطريق إلى المجد الشعري. بل إن بعضهم تساوى في القيمة الشعرية مع شوقي. وبعضهم فاقه رفعة في نظر بعض كبار النقاد، وفي مقدمتهم طه حسين، الذي قال في خليل مطران يوم وفاته: "لقد عرفت مطراناً وكنت معجباً بشعره، مؤثراً له على شعر المعاصرين جميعاً في الأقطار العربية كلها. ولم أستثن منهم واحداً. ولن أستثني منهم أحداً. وكنت أسمع لشعره ولشعر حافظ وشوقي، فأوثر شعر مطران في وجه حافظ وشوقي. لا أحتاط إلا في ديباجته التي كنت أراها مقصرة عن معانيه بعض التقصير. وكان حافظ وشوقي يسمعان ولا ينكران، أو لا تنكر ألسنتهما على كل حال. وكنت أزعم لهما جميعاً أن مطران في المحدثين كأبي تمام في العصر القديم، وأنهما وغيرهما من الشعراء يعيشون حول مطران، كما كان شعراء الشام والعراق يعيشون حول أبي تمام." (نص منقول من كتاب جورج غانم "شعراء وآراء").

لكن لشاعرنا رأياً يقيّم فيه شعره، ويرد على الذين يعتبرون شعره خارج التوصيف الذي يدعي فيه بأنه شعر عصري. يقول مطران في مقدمة ديوانه، مخاطباً أولئك الذين ينتقدونه: "... فيا هؤلاء! نعم هذا شعر عصري. وفخره أنه عصري. وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر... هذا شعر ليس ناظمه بعبد. ولا تحمله ضرورات الوزن والقافية على غير قصده. يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد، ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام. بل ينظر إلى جمال البيت

في ذاته وفي موضعه، وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر... على أنني أصرح غير هائب، أن شعر هذه الطريقة- ولا أعني منظوماتي الضعيفة- هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً... ثم أنني لم أدخل إلى الآن شعري من كل ما خالفت فيه السابقين بسيري على هذه الطريقة الفطرية الصحيحة. ولكنني أرجو أن أقدم على ذلك في المستقبل إن كان في الأجل فسحة... هذا شعري وفيه كل شعوري هو شعر الحياة والحقيقة والخيال... أتابع السابقين في الإحتفاظ بأصول اللغة، وعدم التفريط فيها، واستيحاء الفطرة الصحيحة. وأتوسع في مذاهب البيان مجارة لما اقتضاه العصر، كما فعل العرب من قبلي... أما الأمنية الكبرى التي كانت تجيش بي، فهي أن أدخل كل جديد في شعرنا بحيث لا ينكره...".

وكان من بين كبار شعراء ذلك العصر، إلى جانب شوقي وخليل مطران، كل من: حافظ ابراهيم شاعر النيل، ومحمود سامي البارودي شاعر الثورة العربية، ومحمد مهدي الجواهري ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وبدوي الجبل والأخطل الصغير وسعيد عقل وعمر أبو ريشة وكبار آخرون، تعددت أنماط شعرهم، واحتلوا، واحتلت معهم أشعارهم، مكاناً مميزاً في مملكة الشعر العربي الحديث.

كتب الكثير عن خليل مطران. وتعددت الآراء في شعره. لكن النقاد أجمعوا على تقييم شعره، حتى وهم يميزون بين نمط من شعره ونمط آخر. فيمجدون واحداً هنا، ويعيبون عليه نمطاً آخر. لكن الإختلاف كان كبيراً بين ناقد وآخر، حتى في هذا النوع من التمييز بين نمط وآخر، أي بين الشعر الذي يمجد فيه مطران الحرية ويلعن الطغاة، على سبيل المثال، وبين الشعر الذي يتصل بالمناسبات مدحاً وهجاءً ورثاءً، على سبيل المثال أيضاً. لكن مطران ذاته لم

يكن يولي اهتماماً كبيراً بهذا النوع من التمييز بين نمط وآخر في شعره. إذ كان يعتبر أنه في كل ما كتب من شعر، أية كانت المناسبة أو القضية أو الفكرة أو الصورة أو الحالة الشعرية، إنما كان يعبر عن ذاته وعن أفكاره وعن هواجسه، بلغته الشعرية ذاتها التي تنوعت أشكالاً وصيغاً. وكان يجهد لكي يكون مجدداً في الشعر، من دون أن يفقد علاقته بتقديم الشعر المنسوب إلى الكلاسيكية. وقد اعتمد في خياراته الشعرية، قضايا ومواضيع وأفكاراً وصوراً، على ثقافته التي اتسع ألقها، وتنوعت ميادينها، وتعددت مصادرها.

لنتعرف أولاً إلى الشاعر في الظرف التاريخي، وفي المكان الجغرافي، وفي الوسط العائلي، التي ولد فيها ونشأ وتكونت الملامح الأولى لشخصيته. ثم نتابع، بعد ذلك، تطور شخصيته الشعرية والثقافية، وارتقاء موقعه إلى المستوى الذي جعله أحد كبار شعراء عصره في العالم العربي، في النصف الأول من القرن العشرين.

ولد خليل مطران في عام ١٨٦٨ في مدينة بعلبك الملقبة بمدينة الشمس، الواقعة في القسم الشمالي من منطقة البقاع اللبنانية، غير بعيد من سفوح السلسلة الشرقية من جبال لبنان التي يطل منها هذا البلد العربي على سوريا، جارته وشقيقته ورفيقة دربه في التاريخ القديم والحديث. أبوه هو عبده يوسف مطران. وكان تاجراً ميسوراً. وكان مثقفاً أيضاً. وكان معروفاً في المدينة بأنه حفظ عن ظهر قلب أشعار ابن الفارض الصوفية. أما والدته خليل فهي ملكة صباغ، الفلسطينية الأصل. وكانت معروفة بنظم الشعر في المناسبات. وقد ترك هذا البيت الثقافي تأثيره المباشر على خليل منذ البدايات. بدأ دراسته في مسقط رأسه بعلبك لمدة سنة واحدة. انتقل بعدها إلى مدينة زحلة ليتابع دراسته الابتدائية في إحدى مدارسها. وكانت تجربته في زحلة تجربة فاشلة. إذ قضى فترة الدراسة في اللهو والعبث والتمرد. وهو يصف فترة لهوه وعبثه وتمرده تلك بالأبيات التالية:

إني لأذكر زحلة وأنا ولد لعوب بين أولاد  
متعلم فيها الهجاء ولي نرق فلا أصغي لإرشاد  
كل يعد الدرس مجتهداً وأنا بلا درس وأعداد

تابع خليل الطفل دراسته بعد زحلة في "معهد البطريركية" في بيروت حتى عام ١٨٨٧. وكان قد بدأ ينضح ويتخلى عن طيشه، من دون أن يفقد جذوة التمرد عنده. أتقن في هذا المعهد، على يد اليازجيين ابراهيم و خليل، أصول اللغة العربية. كما أتقن اللغة الفرنسية. لكنه بدأ يكتب باللغة الفرنسية قبل العربية. ثم بدأ يكتب باللغتين. وساعدته معرفته بأصول اللغة العربية وبآدابها وأدبائها عبر العصور على الدخول في امتحان موهبته في كتابة الشعر. وكان من بين جذور تلك المعرفة ما كان قد تعلمه من أبيه في قراءة وحفظ الأشعار الصوفية لابن الفارض. ثم ثابر على محاولاته في كتابة الشعر. وبدأ ينشر قصائده الأولى في جريدة "السان الحال"، التي كان قد أسسها خليل سركيس في عام ١٨٨٤، واستمرت في الصدور حتى عام ١٩١٥. ولم يكد ينهي خليل دراسته في "معهد البطريركية" حتى اختارته إدارة المعهد لممارسة تدريس اللغة العربية فيها. وتشير سيرة خليل مطران في مرحلة النضوج إلى أنه تابع تمرده المبكر، متأثراً بما كان عليه حال أستاذه اليازجيين، اللذين عرفا بثورتهما الثقافية والسياسية. واتخذت ثورته على الطغيان والظلم طابع الإحتجاج على سياسة السلطان عبد الحميد، الذي ما أن صعد إلى موقع القرار الأول في السلطنة العثمانية حتى بدأ يمارس استبداده. فكّم الأفواه، وأقفل الصحافة، وزج بالأحرار في السجون.

في صيف عام ١٨٩٠ سافر خليل مطران إلى باريس. وهناك تابع نضاله ضد سياسة السلطان عبد الحميد. وانضم إلى حزب "تركيا الفتاة"، المعارض للسلطان. إلا أنه واجه في

باريس خلال العامين اللذين قضاهما فيها ضغوطاً من قبل سفارة السلطنة في العاصمة الفرنسية. وعندما وجهت إليه السلطات الفرنسية الإنذار بإيقاف نشاطه غادر باريس إلى مصر، حاملاً معه زاداً كبيراً من الأدب الفرنسي، ومن الثقافة الفرنسية عموماً، وزاداً من تاريخ فرنسا الحافل بأعلام الحرية وبالثورات التحررية. وكان من أبرز ما عرف عن تأثره بالأدب الفرنسي التزامه المدرسة الرومانسية في الأدب التي تميز بها شعره في المراحل الأولى من تطوره.

وصل خليل مطران إلى الإسكندرية أولاً. وصادف وصوله إليها وفاة مؤسس جريدة "الأهرام"، اللبناني الأصل، سليم تقلا. فألقى قصيدة في رثائه. وفور انتهاء مراسيم الدفن والتأبين للراحل أقبل بشارة، شقيق سليم تقلا، على مطران معانقاً إياه، شاكراً له مشاركته في التأبين، مقترحاً عليه الإنضمام إلى أسرة تحرير الجريدة.

شارك مطران في تحرير "الأهرام" إلى أن انتقلت في عام ١٨٩٩ من الإسكندرية إلى القاهرة. فاقترح عليه بشارة تقلا أن يرأس تحريرها. لكنه لم يبق في الموقع سوى عام واحد. فأنشأ مجلة خاصة به هي مجلة "المجلة المصرية". وقد ساعدته المجلة على توثيق علاقاته بأدباء مصر. وكان من أبرز من تعرف إليهم وأقام معهم علاقة زمالة شعرية كل من أمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر النيل حافظ إبراهيم ومحمود سامي البارودي رفيق أحمد عرابي في الثورة. وكان قد نشر لهؤلاء الشعراء الكبار بعض قصائدهم في المجلة.

لكن خليل مطران أوقف المجلة بعد عامين من صدورها في عام ١٩٠٢. وأصدر في العام ذاته جريدة يومية بالإشتراك مع صديقه الصحفي اللبناني يوسف الخازن، باسم "الجوائب المصرية". لكنها لم تعيش طويلاً، بسبب كلفتها العالية. وبإقفال المجلة والجريدة غادر مطران العمل الصحفي وانطلق يعبر عن ذاته وعن ثورته بالشعر. وإذ أدرك أن الشعر لا يساعده على العيش مارس التجارة. ففتح دكاناً صغيراً. ولم يسعفه هذا العمل التجاري البسيط على كسب

عيشه، ولا رآه ملائماً لشخصيته. فترك التجارة، وبدأ يدرس الإقتصاد. وأُرفق ذلك بترجمة موسوعة "التاريخ العالمي". فأصدر الجزء الثاني منه في عام ١٩٠٥، بعد أن كان قد أصدر الجزء الأول منه في عام ١٨٩٧. لكنه لم يوقف مغامراته بحثاً عن المال. فاشتغل في البورصة وفي مضارباتها. وقادته تلك المغامرة إلى خسارة كل ما كان قد وفره من مال. وكانت نهاية تلك المغامرة في عام ١٩١٢. إلا أن تلك الكارثة، التي زادت من تشاؤمه ومن انطوائيته، سرعان ما فاجأته بحدث سار، تمثل بمنحه "الوسام المجيدي الثالث" من قبل الخديوي عباس حلمي، وإطلاق لقب "شاعر القطرين" عليه، مرفقاً بأمر خديويّ بإقامة حفل تكريمي له في الجامعة المصرية. وشارك في حفل التكريم كبار أدباء العالم العربي. تمثل فيه لبنان بالشاعر شبلي الملاط. وأرسل جبران خليل جبران رسالة تلتها بالنيابة عنه الأديبة مي زيادة، مع مقدمة عزّفت بها جمهور الأدباء إلى شخصيتها. لكن تكريم الخديوي لم يكن معنوياً وحسب. بل هو استكمل بتعيين مطران أميناً مساعداً للجمعية الزراعية الملكية. وهو المنصب الذي استمر فيه طوال حياته.

ثم صار خليل مطران شاعراً عربياً كبيراً. صار أولاً شاعر القطرين، كما أسلفنا. لكنه سرعان ما قفز في الإرتقاء ليحمل لقب شاعر الأقطار العربية.

تناول مطران في شعره العديد من القضايا والمواضيع. كتب الشعر في الحب وفي معاناته فيه. وكتب في الشعر القصصي. وتغنى بالطبيعة وبجمالها. لكن ما استقر في شعره وأعطاه اسمه الكبير هو اهتمامه بقضية الحرية، وموقفه الثابت والصاخب ضد الطغيان وضد الطغاة. وقد أصدر الأديب اللبناني رثيف خوري ديوان "الطغاة" الذي يضم عدداً من قصائد مطران، التي يعلن فيها ثورته ضد طغاة عصره وطغاة العصور السالفة. أصدر رثيف خوري هذا الديوان في عام ١٩٤٩، العام الذي كان قد غادر فيه مطران الحياة. ويقول خوري بأنه نفذ، بإصدار ديوان

"الطغاة"، ما كان قد خطط له مطران ولم يتمكن من تحقيقه. يقول رئيف خوري في مقدمة الديوان: "... وإنما كان حظاً للشعر العربي أن مطراناً عمد إلى هذه الوسيلة التاريخية يشجب بها الطغاة والطغيان في العصور. فقصائده في هذا المجال أجود شعره صورة وفكرة وعاطفة ومساق حكاية. جمعناها في هذا السفر تنميماً لرغبة سمعها كاتب هذه السطور من الشاعر نفسه في بحدون صيف زيارته لبنان آخر مرة. فلقد أعرب الخليل يومئذ عن نيته إخراج مثل هذه المجموعة بعنوان "الطغاة". ثم لم نعلم إذا كان قد أعدّها وتركها مخطوطاً بين أوراقه، أم شغلته المشاغل، فجاء عملنا نحن وفاء لإرادته من إراداته، لا ندري - ولن ندري - مدى رضاه عنه بعد أن أصبح في ذمة التراب وذمم الأجيال اللاحقة". وقد قدم خوري لكل قصيدة من قصائد الديوان معلومات يشرح فيها الظروف التي أملت على الشاعر كتابتها، أو ما كان يتصوره ويتخيله خوري من تلك الظروف. لنقرأ بعض نثرات من بعض تلك القصائد. يقول مطران في قصيدته "الأهرام":

شاد فأعلى وبني فوطدا	لا للعلى ولا له بل للعدى
مستعبد أمته في يومه	مستعبد بنيه للعادي غدا
إنني أرى عد الرمال ههنا	خلائقاً تكثر أن تُعدّدا
صفّر الوجوه نادياً جبالهم	كالكلأ اليابس يعلوه الندى
محنية ظهورهم خرس الخطى	كالنمل دب مستكيناً مُخلدا
مجتمعين أنحراً منفرعي	ن أنهرا منحدرين صعدا
أكلّ هذي الأنفس الهلكى	غداً لفانٍ جدّنا مُخلدا

ويقول في قصيدته الشهيرة "مقتل بزجمهر":



سجدوا لكسرى إذ بدا إجلالا  
كسجودهم للشمس إذ تتلالا  
يا أمة الفرس الأسود على العدى  
ماذا أحالك في السلام سخالا  
كنتم كباراً في الحروب أعزة  
واليوم بتم صاغرين ضئالا  
عباد كسرى مانحيه نفوسكم  
ورقابكم والعرض والأموالا  
تستقبلون نعاله بوجوهكم  
وتعفرون أدلة أوكالا  
التبر كسرى وحده في فارس  
ويعد أمة فارس أزدالا  
شر العيال عليهم وأعقهم  
لهم ويزعمهم عليه عيالا  
إن يؤتهم فضلا يمين وإن يرم  
تأراً يبيدهم بالعدو قتالا  
وإذا قضى يوماً قضاءً عادلاً  
ضرب الأنام بعدله الأمثالا

وينهي القصيدة بالبيت الشهير فيها:

ما كانت الحسنة ترفع سترها  
لو أن في هذي الجموع رجالا

ويقول في قصيدة "تيرون":

ذلك الشعب الذي آتاه نصراً هو بالسببة من "تيرون" أخرى  
أي شيء كان "تيرون" الذي عبده؟ كان فظ الطبع غزاً  
بارز الصدغين رهلاً بادناً ليس بالأتلع يمشي مسبطراً  
خائب الهمة خوار الحشى إن يواقف لحظه باللحظ فزاً  
قرمة هم نصبوه عالياً وجثوا بين يديه فاشمخراً  
ضخموه وأطالوا فيئه فتراعى يملأ الآفاق فجراً

منحوه من قواهم ما به صار طاغوتاً عليهم أو أضراً  
يكثر الإعصار هدماً وردى إن يكثره وما أوهاه صدرا

لم يكد خليل مطران يبلغ الذروة في عالم الشعر حتى برزت كل مواهبه. وبرزت معها كل صفات الإنسان الحقيقي فيه. فإذا كان قد عرف بثورته وبتمرده منذ شبابه الباكر، وعرف بحبه للحرية، وبنقمة على الطغاة، فإنه كان، في الوقت ذاته، صاحب مزاج، وصاحب مشاعر إنسانية، وصاحب مغامرات عاطفية. كما كانت له صداقات وعداوات في عالم الأدب وفي عالم الشعر. ورغم أنه كان صاحب رأي في الوطنية وفي الحرية، فإنه لم يمارس السياسة، ولم يتخذ له موقفاً فيها.

تعددت في الحب مغامراته، منذ الطفولة. لكن مغامراته الأساسية كانت في المرحلة التي كان قد صار فيها شاعراً مرموقاً. وكانت الأدبية اللبنانية مي زيادة واحدة ممن توله بها، أسوة بآخرين من كبار أدباء مصر ولبنان، الذين سبقوه ورافقوه في التعلق بها. وكان من بين هؤلاء جبران خليل جبران وعباس محمود العقاد. وله في الحب قصائد عديدة نقتطف منها بعض الأبيات المتفرقة. يقول في واحدة من هذه القصائد مخاطباً حبيبته الأولى أيام الطفولة:

هل تذكرين، ونحن طفلان	عهداً بزحلة ذكره غم
إذ يلتقي في الكرم ظلان	يتضحكان وتأنس الكرم؟
هل تذكرين بلاعنا الحسننا	حين اقتطاف أطايب العنب
نعطي ابتسامات بها ثمننا	وبنا كنشوتها من الطرب؟

ويقول في "الحب السرمدي"، حبه لفتاة نمساوية:

حبّبت نساءً ولكن

كما حبيبتك لا لا

وقفت كل حياتي

عليك وفقاً حالاً

مرت علاقة مطران بأحمد شوقي وحافظ ابراهيم بفترات ود وجفاء. لكن عباس محمود العقاد يقول في وصف هذه العلاقة بين الثلاثة بأنها كانت علاقة زمالة، ولم تتخذ طابع صداقة. كان خليل مطران بحق شاعر القطرين، اللبناني والمصري. أحب مصر وعاش فيها معظم حياته. لكن حبه لوطنه لبنان ظل هو الأصل بالنسبة إليه. ورغم حفلات التكريم التي أقيمت له في مصر، وكان واحداً منها برعاية الملك فاروق الذي منحه لقب بك، فإن الحكومة المصرية لم تعطه موقعاً في مؤسساتها التعليمية والأدبية، رغم أنه ورث رئاسة جمعية "أبولو" الشعرية من أحمد شوقي. وتابع، من موقعه في رئاسة تلك الجمعية، اهتمامه بكل ما يتصل بتطوير الشعر ويرفع شأن الشعراء.

واصل مطران زيارة لبنان، على امتداد حياته في مصر، لا سيما لقضاء فصل الصيف في ربوع وطنه. وقد أقيمت له حفلات تكريم عديدة، شارك فيها كبار أدباء لبنان. وحين اشتدت عليه بعض الأمراض التي كان يعاني منها، شعر بدنو أجله. فوضع وصية يطلب فيها دفنه في مسقط رأسه "بعلبك". وغادر الحياة في عام ١٩٤٩. ودفن، وفق وصيته في بعلبك. وأقيم له في عام ١٩٦٦ نصب تذكاري بالقرب من قلعة بعلبك التاريخية، التي كان قد نظم في تمجيدها عدداً من قصائده الخالدة. ويقول مطران في إحدى قصائده الأخيرة قبل الرحيل، فيما يشبه الوداع:

أخنى عليه علو سني

ماذا يريد الشعر مني؟

أيام من أدبي وفني

هل كان ما ذهبت به الـ

أحسنت ظني، والليا  
لي لم توافق حسن ظني  
ورجعت من سوق عرض  
ت بضاعتي فيها بغين  
أفكان ذلك ذنبها  
أم كان ذنبي؟ لا تسلني!

لكن لخليل مطران جوانب أخرى في حياته وفي نشاطه الثقافي والأدبي كان أبرزها اهتمامه بترجمة الكتب في التاريخ والاقتصاد والترفيه. فضلاً عن ترجمته لقصائد من الشعر الفرنسي ولعدد من الأعمال المسرحية. ويعتبر كتاب "مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام" من أهم ترجماته في مجال التاريخ. يتناول المتاب صفحات من تاريخ اليونان والرومان وتاريخ القرون الوسطى وتاريخ مصر والهند وفينيقيا وتاريخ العرب وتاريخ الحروب الصليبية ومعظم الحضارات وصولاً إلى مطالع القرن العشرين. أما في المسرح فقد ترجم بطلب من المسرحي اللبناني المصري جورج أبيض العائد من باريس عدداً من مسرحيات شكسبير تعرضت للنقد لأنه لم يترجمها عن لغة شكسبير الانكليزية. إلا أن اهتمامه بالمسرح تضاعف في فترة ترؤسه الفرقة القومية المصرية للتمثيل.

كتب الكثير عن خليل جبران في حياته وبعد وفاته. وأنقل هنا مقتطفاً من مقال للمفكر اللبناني المصري فؤاد صروف يقول فيه:

تاتاتامتاتاما

لكنني أحيل القارئ إلى ثلاثة كتب تناول مؤلفوها سيرة خليل مطران في الجوانب المختلفة من حياته ومن نشاطه الثقافي. وهي كتاب جميل جبر "خليل مطران"، الذي صدر في سلسلة أعلام الأدب والشعر تحت اسم "ما قل ودل"، وفي كتاب أحمد درويش "خليل مطران"، الصادر من ضمن سلسلة مشاهير الشعراء العرب، وفي كتاب منير عشقوتي "خليل مطران" الصادر

ضمن سلسلة شعراء لبنان. في هذه الكتب الثلاثة الكثير من الحديث السمات الأساسية لشعر خليل مطران. وهي كتب تشكل مرجعاً مهماً إلى جانب مراجع أخرى تقوم الكثير والأساسي عن سيرة مطران لمن يريد المزيد من المعرفة عن هذا الشاعر الكبير، سيرة شخصية وسيرة شعرية ومواقف وآراء في كل شؤون الحياة.